وقد رأى السيد العلي بينهن سيدتين على جانب عظيم من الجمال والبهاء لا تعرف الواحدة الأخرى

فأخذ السيد العلي بيد احداهن وقادها إلى الثانية وقال معرفاً لها «الاحسان»

وأشار إلى الثانية وقال معرفاً لها «الشكر»

فدهشت الاثنتان لأنهما من منذُ وجد الكون — وقد وجد من عهد بعيد — لم تتقابلا إلا هذه المرة

النَّوَر

رواية هذا العدد

للكاتب الروسي بوشكين نقلها الى الفرنسية

الكاتب الفرنسي پروسپير ميريميه

صاحب رواية كارمن

ونقلها الى العربية الاستاذ صاحب التوقيع

كانت قافلة النوَر تهيم في صحراء بسَّارابيا بين الجلبة والضوضاء حتى ضربت خيامها المتمزّقة على ضفاف النهر. وكانت ليلتها خلوة حلاوة الحرية يطيب فيها النوم تحت سماء النجوم الزاهية.

ولقد كانت النار تتسلل ألسنتها من فجوات عجل العربات وبقايا البسط وأفراد القافلة من حولها يتهيأون لتناول طعام العشاء. أما الخيول فكانت تنساب خلف العشب ترعاه وقد سكن دبيبهم المستأنس الى جانب خيمته من تلك الخيام

هكذا كانت هذه الكتلة تموج حركة في جوف الصحراء. وقد اعتزمت الرحيل عند بزوغ الفجر فأخذ كل منهم يعد عدته له.

وبينما النساء يغنّين والاطفال يصيحون والمطارق يتردد صداها في الفضاء

ساد السكون على الصحراء لا يشوبه غير نباح الكلاب وصهيل الخيول وقد كفوا عن الحركة فشملتهم الراحة وهمدت النيران ولم يعد الا القمر وحده يتلألأ من بعيد في السموات وكأنه يصب نوره صباً على تلك الجماعة النائمة

على أن احدى تلك الخيام كان بها شيخ لم يغمض جفنه وبين يديه بعض جمرات متقدة وهو يرسل نظراته الى السهل يملأ جوانبه الضباب

أما ابنته فقد هرعت الى رحب الصحراء تلهو وتلعب ليس عليها رقيب ولا لحريتها قيدٌ تجري خلف ماتصوره لها خيالاتها .

ولكن زهيرا (وهو اسمها) لم تعد مع أن الليل مضى منه شطر كبير وقد حجب القمر سحاب الأفق حتى كاد طعام الشيخ يبرد وهو في انتظارها

على أنها لم تلبث أن ظهرت من جانب كثيب قريب ومعها فتى يتقدمها لم يكن رآه النَّوَرُ من قبل

وعند ذلك صاحت بالشيخ : « أبي . لقد أحضرت معي ضيفا صادفته خلف تلك الأكمة وقد كاشفني عزمه على مزاملتنا وسيجد مني خير رفيق وسيتبعني أنى سرت ثم أن اسمه أليكو » فقال لها الشيخ أحسنت يا ابنتي ! أما أنتَ (وهو يخاطب الشاب) فلتكن ضيفنا الى الغد في ظل هذا الخباء والى ماشاء الله اذا شئت تقاسمنا خبزنا وحمانا فكن ياولدي كأحدنا وَرُضْ نفسك على أسلوب حياتنا فأنها مما شابها من البساطة والتنقل سعيدة بنعمة الحرية والاستقلال وغداً عند مايتنفس الصبح تسير بنا عربة واحدة نحن الثلاثة . ثم لم لا تختار لك مهنة مثلنا فاصهر الحديد إن شئت او فغن وأنت تجوب معنا المدن بهذا الدب

أما اليكو فكان جوابه انه سيبقى ، فقالت زهيرا لقد أصبح من الآن رجلي فمن ذا الذي يقدر على انتزاعه مني ، ولكننا يا أبت قد أفرطنا في السهر وهذا قرص القمر قد توارى والضباب يغطي وجه السهل وجفوني مثقلة بالنوم رغما مني

ولما ولى الليل أخذ الشيخ يدور بخطى ثقيلة حول الخيمة الساكنة ثم صاح بابنته لتنهض وقد برزت الشمس من خبائها وبالضيف ليستيقظ وقد أزف الوقت

وعند ذلك نهضت القافلة كلها ولحركتها واصواتها دوي متصاعد . وبعد

أن طوت خيامها وهيأت للرحيل عربانها تحركت مرة واحدة مجتازة تلك السهول المقفرة والحمير تتقدمها حاملة الأطفال والسلال وهم يقفزون فوق ظهورها ويلعبون وفي أثرهم أباؤهم وامهاتهم والشبان والشيوخ

وكانت أناشيدهم تمتزج بعواء الذئب وهو يعض سلاسله وأطيارهم البالية تلوح مجموعة ألوانها المختلفة من بعيد

وكلابهم أيضاً تراها تنبح على صوت المزامير يخالطها صرير العجلات فوق الحصا

كان الناظر يرى أمامه طائفة من أولئك النور جمعت بين الشقاء والخشونة ولكنها جمعت أيضاً بين اسباب الحياة والحركة نخجل نحن بجانبها من حياتنا الناعمة الجامدة حياة الخمول والوقوف

أما الشاب فكان يدور بعينيه في مدى تلك الصحراء المجدبة وقد استولى عليه حزن لا يعرف سببه بالرغم من بقاء زمفيرا الجميلة ذات العيون السوداء إلى جانبه

لقد أصبح الآن حراً طليقاً واصبحت الدنيا بأسرها تتنقل أمامه وعلى رأسه تاج من ذهب الشمس المتوهج فلمَ كان صدره منقبضاً ولمَ كان قلبه يشعر بالألم والعذاب ؟

أن العصفور الذي خلقه الله لا يحمل هماً فما الذي جعله يجهد نفسه في نسيج عشه متيناً ليدوم وغصن من شجرة يكفيه لينام

ولكنه متى أحس حرارة الشمس سمع صوت الأقدار فينفض جناحيه وينشد :

« بعد أن تخلع الطبيعة حلة جلالها بانصرام الربيع يهجم الصيف بقيظه ثم يأتي الخريف على مهل من بعده ساحباً ثوب الضباب والبرد فما اتعسك وما اشقاك ياايها الانسان »

وعند ذلك يطير إلى جهة المناطق المعتدلة يطلب فصل الربيع

كذلك الرجل المتنقل الشرير مثله كمثل ذلك العصفور ليس له مأوى ثابت

ولا معيشة متجانسة يستقبله السير فاذا وقف لا يعدم حمى يأويه ولو ليلة حتى اذا أيقظه الفجر ترك نهاره لحكم الاقدار وقلبه هادىء مطمئن

نعم قد يتمثل له أحيانا شبح المجد يتألق كالنجمة اللامعة من بعيد فيذكر ماضياً وفق عنده ما كان لحياته الأولى من زينة وأنس وقد يسمع دوي الصواعق يرج الفضاء فوق رأسه وهو سواء أعبست السماء أو ابتسمت يطرق النوم جفنيه وقلبه مستريح لا تعرف مكانه الهموم

كذلك كان شأن اليكو الذي نسي مرارة الأقدار العمياء

ولقد كانت الشهوات فيما سلف تجد مكاناً خصيباً من نفسه الوديعة المستسلمة. وكم كانت تتقد نارها في قلبه الناعم ولكنها سكنت ثورتها من زمن طويل لا يدري هل يطول زمن سكونها او انها ستستيقظ مرة أخرى يوماً من الايام

زمفيرا — العلك نادم على ما تركت

اليكو — وما تركت يا زمفيرا

زمفيرا — انت أدرى . . اهلك وعشيرتك ووطنك . ألم تندم عليهم ؟

اليكو — انا اندم ؟ . . . ليتك تدركين مبلغ العبودية في ذلك الوطن حتى يكاد يختنق المرء فيه . لقد تضاءف عدد الناس فضاقت بهم أرض لا يستنشقون عليل النسيم الندي عند الصباح ولا يشعرون بأرج فصل الربيع في فضاء المراعي وقد أصبحوا يحتقرون كل شيء . يجدون في الحب عاراً وفي استقلال الفكر جرماً وهم غافلون عن هذه النقائص في جريمتهم التي لا يأنفون من بيعها بيع البقل . ترينهم يخرون سجداً عند أقدام معبوداتهم يسألونها الذهب ولو كان قيوداً وأغلالا . فماذا تركت أذن من خلفي غير الخيانة الفاضحة والأوهام السامة والاحقاد والعار . . .

زمفيرا — ولكن هناك قصوراً باذخة وفرشا زاهية وأنساً وملاهي وأعياداً غير ملابس السيدات . . اليست فاخرة ثمينة ؟

اليكو — ان افراح المدن جوفاء كالطبل . فليس هنالك حب صحيح ولا افراح حقيقية . اما النساء فماذا اقول لك عنهن . انك لتفضليهن في عيني

يا زمفيرا أنت التي لست بحاجة إلى زينتهن ولا لثهن . انك لن تخونيني على الأقل ياصاحبتي . أما اذا . . . ومع ذلك فلم تعدلي من امنية فوق بقائك على حبي في هذا المنفى الذي رضيته إلى جانبك

الشيخ — تقول انت تحبنا وانت من ابناء اولئك الأغنياء . أنهم ليس من السهل عليهم أن يستمرئوا طعم الحرية بعد أن استمرأوا طعم اللهو والزينة . اسمع . فلقد وفد على هذه البلدة مرة رجل من اهل الجنوب غضب عليه ملكه وكان متقدماً في السن ولكن قلبه كان لا يزال فتياً . وكان قد وهبه الله صوتاً حسناً له رنين كخرير الماء حتى اننا احببناه جميعاً . وهكذا لبث معنا على شاطيء نهر الطونه لا يؤذي أحداً وقد اخذنا نجد لذة في سماع أغانيه ولكنه كان حياً ضعيفاً كالطفل حتى أن الصيادين كانوا يقبلون عليه ويفرغون بين يديه شباكهم. اما اذا تجمد ماء النهر وذهبت اعاصير الرياح هيأوا له فراشاً وثيراً ليدفأ ويرتاح ولكنه مع ذلك لم ترق في عينه هذه الحياه فكنت تراه أصفر اللون جاف الملامح يقول أن غضب الله يتعقبه أينما حل تكفيراً عن ذنبه ويمني نفسه بقرب ساعة الخلاص

وهكذا أخذ ينتقل من شاطيء لشاطيء وهو لا ينقطع عن البكاء حسرة على وطنه البعيد حتى أنه قبل أن توافيه منيته اوصى أن يدفن في جهة الجنوب حتى يكون قبره في غير أرض المنفى

اليكو — اذن هذا هو حظ أبنائك يارومه، ياحاكمة الدنيا ، يا شاعرة الحب، وياشاعرة الآلهة : دليني عن المجد هل هو ذلك الصدى الذي يخرج من جوانب القبر او تلك الصيحة الصاعدة بالزهو والاعجاب او تلك الذكرى التي تتنقل بين الأعمار أو هو قصة ذلك النوري المتوحش يرويها بين اعواد خبائه الذي سوده الدخان

ولقد مضى سنتان بعد ذلك وتلك النورية على عهدها من السرور والبشاشة في اقامتها وتنقلها لا ترى حيثما حلت الا مشاهد الاكرام والسلام وقد زحزح اليكو عن نفسه قيود المدنية فأصبح حراً كضيفه لا يحمل هماً ولا يعذب ضميره ندم

نعم أنه تلاشت من ذهنه صورة ايامه الاولى واستطاب عادات النور فطابت له الاقامة مثلهم تحت سقوف الخيام ودبت فيه نشوة ماهم فيه من الكسل المنيء وأحب كل شيء فيهم حتى لغتهم البسيطة الرنانة كما اصبح ذلك الدب صديقه يقوده كلما مر بالطريق الموصلة إلى عاصمة ملدافيا هذا يغني وذلك يرقص والناس من حولها جموع متكاثفة بينما الشيخ وهو متكيء على عصاه ينقر على دف معه وزمفيرا تمر على المتفرجين فيبسطون لها اكفهم بالاحسان .

ومتى جن الليل اواهم الثلاثة ذلك الخباء وهم جلوس حول قدرهم يغني ثم يستسلمون للنوم حيث يشمل السكون القافلة .

ولكن اليكو في صباح يوم مشمس من ايام الربيع سمع زمفيرا تنشد :

« ايها الغيور ! ايها الغيور القاسي ! قطعني اربا واحرق جسمي حرقا ترني ثابتة لا أخشى نارك ولا حديدك . انني اكرهك واحتقرك وأحب سواك . آه وسأموت وأنا اذوق عند شفتيه شراب الحب »

وعند ذلك صرخ فيها اليكو : كفى . ان هذه الاغنية تتعبني . وان نفسي لتتقزز عند سماع هذا النشيد الوحشي

لكنها قالت له لا يهمني اذا لم يرق في سمعك فانني انما اغنيه لنفسي ثم سارت فيه :

« قطعني اربا واحرق جسمي أيها الغيور القاسي ! فلن تهتدي إلى اسمه . أن فصل الربيع دونه صباحته ، وحرارة الصيف دون حرارته اتقادا ، وهو فتى مقدام كم تيمني حبه . ولقد اخذت أداعبه وبينما كنت مستغرقا في نومك كنا نحن في جوف الليل نضحك عليك وعلى شعراتك البيضاء »

وعندئذ صاح فيها مرة أخرى :

هو — قلت لك كفى فحسبي الذي سمعت

هي — العلك حسبت تلك الاغنية لك ؟

هو — زمفيرا . . .

هي — لن ابالي بغضبك

وهنا تخرج وهي ترتل تلك الأنشودة

اما الشيخ فقد تذكرها حينما كانت تغني وهو فتى لأن مربولا المسكينة وهم يحترقون فيما مضى سهول كاجول في ليلة شتاء انشدتها وهي تهز ابنتها على مقربة من الموقد ولكن السنين تزاحمت في ذاكرته فنسيها :

ولما ارخى الليل سدوله وساد السكون وقد بدأ القمر يتلألأ عند الجنوب همت زمفيرا بأيقاظ الشيخ صائحة يا أبت أن اليكو يخيفني الا تسمع زفراته وهو نائم

وعند ذلك اشار عليها بأن لا تمسه وأن تظل إلى جانبه بغير أن تزعجه مذكراً اياها بتلك الخرافة الروسية وهي أن الارواح في منتصف الليل تضغط على اعناق النائمين ثم تفر عند الفجر

ولقد عاد اليكو يذكر اسمها فصاح الشيخ أنه يراك في نومه لأنك اعز شيء لديه ولكنها كاشفته سآمتها وأن قلبها ملهٍ ويريد أن يسترد حريته وانها سبق لها . . . وعند ذلك ذكر اليكو اسما آخر قطع عليها الحديث فصاح بها الشيخ ما هذا الاسم

وكان الفتى في تلك اللحظة مخيفاً تسمع لانفاسه حشرجة ولأسنانه صرير فهمت توقظه لولا أن استوقفها الشيخ حتى لا تزعج أرواح الليل وهو مع ذلك يهدي من روعها بأن تلك العوارض تزول من نفسها .

وعند ذلك تحرك اليكو ثم نهض وهو يناديها فلما اقتربت منه سألها أين كنت فقالت عند أبي ولقد كانت بعض الأرواح ترفرف حولك قبل الآن وأنت في نومك تصرخ من الألم حتى اخفتني فقال كنت أحلم بك وكان بيننا . . آه أن منامي كان مرعباً . ولكنها أخذت تذكر له أن كل ما رآه لم يكن غير أضغاث أحلام يجب أن لا يصدقها فصاح انني ما عدت اصدق حتى أيمانك أو قلبك

على ان الشيخ اسرع فتداخل بينهما قائلا لمَ أيها الشاب الطائش تقطع وقتك بالزفرات . أن الرجال تحت قبة هذه السماء الصافية احرار . وان النساء الجميلات الفاتنات كثير فلا تبك فقد يقتلك الحزن

اليكو — آه يا ابي أنها لم تعد تحبني

الشيخ — تعزّ يا صاحبي فما هي غير طفلة . وليس من حسن الرأي أن تستسلم لمثل هذه الكآبة . انك لا ترى في الحب غير المرارة والعذاب وهي لا ترى فيه غير لعبة يتسلى قلبها بها . الا ترى هذا القمر يسبح طليقاً حراً في لجة السماء وهو يجود باشعته تارة على جزء من العالم وتارة على جزء آخر . ولقد تمر به سحابة قاتمة فاذا منحها جزءاً من نوره فتتألق وتزهى (وتزهو) ولكنه يمر بأخرى فلا يهتم لها فمن ذا الذي يلزمه أن يتخذ له مقعدا ثابتاً في السماء ومن ذا الذي يقدر أن يقول له قف مكانك فيكون أمره مطاعا . كذلك قلب الفتاة فمن يقول له أقم على حب واحد اولا تتغير بين يوم وآخر . تعزّ يا ولدي تعز

اليكو — كم كانت من قبل تحبني وكم كانت تحنو علي وتضمني وقد غلبها الشوق حتى أن الساعات كانت تمر فلا نشعر بها وهي كالطفل لا تستقر من الفرح تنعشني بكلمة رقيقة في أذني وتسكرني بقبلة شهية تطرد بها همي. انحونني زميرا.. ثم اين لي الصبر على هجرانها . .

الشيخ — اسمع ما حصل لي انا يا اليكو . كانت روسيا فيما مضى ترتعب عند ذكر اسم السلطان حيث يحكم بوجاك بعض الباشوات وهو متحصن في قلاع اكيرمان . وكنت اذ ذاك فتى في شرخ الشباب تغلي النشوة بقلبي. وكان معنا فتاة كالشمس احببتها واحبتني ولكن سني شبابي مرت سراعاً كما تمر الشهب فلم يطل حب مريولا اكثر من سنة .

واذكر اننا مرة حين حططنا رحالنا عند مياه كاجول صادفتنا قافلة اخرى من الغور نصبت خيامها الى جوارنا عند سفح الجبل ولقد اقامت يومين ثم رحلت في ليل اليوم الثالث فرحلت معها مريولا وانا نائم مطمئن

ولما اصبح الصباح لم أجدها فناديتها ثم اخذت ابحث عنها ولكن اثر القافلة غاب عني فلم يسعني غير البكاء وزميرا الصغيرة تبكي معي .

ومن ذلك اليوم وكل بنات الدنيا سواء في عيني

اليكو — ولكن لمَ لم تقتف في الحال اثر تلك الخائنة وكيف لم تغمد خنجرك في صدر الذي سلبها

الشيخ ولمَ ؟ اليس الشباب طليقا كالجؤجؤ . أي قوة تقدر أن توقف سير الحب . ان لكل نصيباً من الحظ متى جاء دوره فمحال ان ما كان يكون

اليكو — ليس ذلك رأيي . فلن اترك حتى بغير أن اتفانى فيه او على الاقل بغير أن اتذوق طعم الانتقام له . لا . لا . انني اذا عثرت بعدوي على حافة هوة جازت علي لعنة الله اذا لم ادفعه فيها . نعم انني اقذف به في اعماقها اليوم واستيقظ من النوم على لعنته والتلذذ على حساب سكراته . وهكذا كلما مر الزمن يطن صوت نكبته في أذني فيملأها نشوة وفرحاً .

***

النوري الشاب — قبلة اخرى ولا اطلب سواها

زمفيرا — كفى فأن زوجي غيور قاس

النوري — واحدة فقط وطويلة اتزود بها

زمفيرا — كفى فأخشى أن يفاجئنا

النوري — ومتى اراك ؟

زمفيرا — الليلة متى اختفى القمر عند ذلك القبر

النوري — تكذبين

زمفيرا — سأكون . . سر الآن . الا ترى . . .

ولكن اليكو كان نائماً وكأنه رأى في نومه ما أزعجه فاستيقظ صارخا وهو يمد يده والغيرة تكاد تقتله غير أنه لم يمسك الا طرف غطائه . ولقد اخذ يجول بعينيه فلم يرها الى جانبه فارتعد ثم نهض وجسمه ينتفض وقلبه يتقد فخرج ممتقع اللون وكان الليل ساكنا والظلام حالكا وقد احاط بالقمر ثوب كثيف من الضباب ولكنه سار على تألق النجوم وقد اهتدى الى أثر خطوات على الارض التي بللها الندى تتجه الى كوجان فاندفع في طريقها حيث برز بعينيه ذلك القبر الابيض عند آخر الطريق .

وعندئذٍ قامت في نفسه ثورة اخذت ترجّ جسمه حتى انه كاد يقع وهو يمشي وشفتاه مضطربتان وساقاه خائرتان. وهو يتقدم وكأنه امام حلم حتى بدا له على بعد ظلان متجاوران وسمع همسا خافتا فوق ذلك القبر

اول صوت — حسبك ما قضيناه من الوقت معا

ثاني صوت — بلى لنبق .

اول صوت — لا بل يجب ان نفترق يا حبيبي

ثاني صوت — ابداً لنبق الى الصباح

اول صوت — قلت لك أزف الوقت

ثاني صوت — ما أجزعك . لحظة واحدة

اول صوت — انك تعرّضني للخطر

ثاني صوت — ليس اكثر من لحظة

اول صوت — واذا استيقظ ولم يجدني

اليكو — لقد استيقظ . الى أين . قفا مكانكما

زمفيرا — فرّ يا صاحبي

اليكو — قف ايها العاشق الجميل

زمفيرا — (تتبين اليكو) اليكو !

الشاب — لقد مت (وقد طعنه اليكو)

زمفيرا — اليكو . لا تقتله . . . ولكن ماذا أرى . انك ملطخ بالدم

اليكو — تمتعي الآن بحبه

زمفيرا — انني لن اخشاك بعد هذا فلعنة الله عليك ايها القاتل .

اليكو (يطعنها) أذن فموتي انت ايضاً

زمفيرا — نعم اموت وأنا احبه

***

عند ذلك ظهرت أولى اشعة الشمس من الشرق واليكو مستند الى حجر القبر بيده خنجره يقطر بدمهما وعند قدميه جثتاهما

وكانت ملامحه مرعبة من الهول وقد احاط به النور من كل جهة وقد اخذ بعضهم يحفر للقتيلين لحداً عند قدميه

اما النساء فكن يتقدمن واحدة بعد اخرى يقبلن الجثتين

واما الشيخ فكان جالساً يرسل نظراته الى فقيدته الغالية وهو صامت . الا انه بعد ان اهيل التراب صاح :

« ابتعد عنا ايها الرجل المتكبر . اننا وان كنا متوحشين الا ان شريعتنا لا تعرف القتل والعذاب نحن لا نطلب عند . . . . . دماً ولا دموعاً . ولكن نعيش الآن مع قاتل فأنت من الآن حر فلتعش وحدك فما عاد صوتك ليخيفنا فان طبيعتنا القائمة على الحياء والوداعة تتنافر مع قسوتك فلنفترق والله يكتب لك السلامة

وعند ذلك نهضت كل القافلة والسكوت مخيم عليها ثم عادت تلك البقعة الحزنة واخذت تختفي شيئاً فشيئاً في بطن السهل

محمود خيرت

١٩٢٥/٥/٣١ بسكرتارية مجلس الشيوخ

قال بعضهم

كفى حزناً أني أرى من أحبه رهين الردى يرنو اليَّ بطرفه
أود بمالي لو يفدى ومهجتي ولكن يد التقدير غالت بحتفه

وقال آخر

أنا والمحبوب كنا في القدم نقطة واحدة من غيرمين
فبرانا الله اذ أظهرنا مهجة واحدة فى بدنين
فاذا ما الجسم أمسى فانياً تلتقينا واحداً من غيربين

وقال آخر

نحن روحان حللنا بدنا مَن رآنا لم يفرق بيننا
نحن مذ كنا على عهد الهوى تُضرب الأمثال للناس بنا